ارکان النهضة الحديثة

الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ـ١٨٧١)

الرجل ـ « العالم » ـ الشاعر

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

العالم

ليس « العالم » ، في كلامنا عن الشيخ ناصيف ، ذاك البحّاثة الذي يفتش عمّا في ظواهر الكون المختلفة من صلة واحدة تجمعها ، فيدوسها ويردّها جميعاً الى نظرية شخصية يقرّرها ويبرهن عنها ؛ ولا ذاك المستنبط الذي يطبق المبادئ العامّة ، واساليب الاختبار على مواهب الطبيعة فيستنتج نتائج ، ويتحقق خاصيّات ، لم يسبقه اليها احد ، فيعرضها سهلة المنال جزيلة الفوائد لمنفعة البشر . ليس هذا « العلم » من صفات الشيخ ناصيف ، بل هو بعيد عنه بُعدَه عن « علماء » العرب الاقدمين . انما نريد « بالعالم » المطّلع على ما في اللغة العربية ، من حيث هي اداة التعبير ، من مواضيع للبحث تتفرّع عن قواعد إحكامها ، واساليب الانشاء فيها . وذلك ما كان يسميه العرب تارةً بالعلوم اللسانية ، وطوراً بالعلوم العربية ، او علوم اللغة ، وحيناً بعلم الادب ، واحياناً بفنون العرب . فنرى ان لفظة « علم » لم يكن موضوعها مقرّراً ولا استعمالها محدّداً ، ولهذا كثرت على اقلام الكتاب مرادفةً للفنّ مرّة ، وللمعرفة مراراً

فاذا تقرّر ما المراد بلفظة « عالم » ، القينا نظرة اجمالية على « العلوم العربية » فرأينا ان ما تجب منها معرفته على «العالم» يبلغ الاثني عشر فرعاً : هي الصرف والنحو ، والمعاني والبيان والبديع ، والعروض والقافية ، واللغة ، والمنطق ؛

يلحقون بها الفقه ، والطب ايضاً ؛ وقد يتمونها بالموسيقى . وكلها موضوعات نقلية لا تُفسح المجال الواسع للاستنباط ، وبسط الآراء الشخصية ، لاسيما في عصر أُغلق فيه باب الاجتهاد في الفقه ، وقيست عليه سائر المعارف ، فانصرف جميع « العلماء » الى الحفظ والنقل والتعليق ، دون الاختبار والقياس والتوليد . ولمّا كان إعمال الذاكرة اسهل من كدّ الذهن ، ولمّا لم يكن لقادة الفكر في الماضي مقياس عقلي صحيح لمعرفة قيمة المؤلفات ، اكتفى علماء ذاك الزمن باطلاع الناس على نتائج حفظهم كسَرْد الحوادث المختلفة باسماء اشخاصها وتحديد مواقعها ، والاكثار من نوادر عظماء الرجال ، ومشاهير الادباء . وهي اشدّ وقعاً ، واعظم تأثيراً في نفوس جمهرة المتأدبين ، من نتيجة البحث والتفكير كتحديد الشخصيات الادبية ، وإبداء الاحكام المعقولة . فسار « علماؤنا » يتبعون بعضهم بعضاً على غير هُدًى ، ويقلّدون الاقدمين عن قلّة علم

ونحن اذا عرضنا سلسلة تلك « العلوم » المتعدّدة ، نجد ان الشيخ ناصيف وعاها كلها على طريقة الاقدمين ، وألّف في اكثرها تآليف تختلف طولاً ، واسلوباً ، وقيمة . ولكي يسهل علينا درس تلك المؤلفات ، ومن ثمّ معرفة قيمة الشيخ « العالم » ، نوردها مرتّبةً على الاقسام التالية :

الصرف والنحو

كان اول ما ألّف الشيخ ناصيف في علم الصرف :

ا — لمحة الطرف في اصول الصرف

وهي ارجوزة قصيرة مشروحة بقلمه ، ألّفها سنة ١٨٥٤ ، وجعلها « كحجر الزاوية الذي هو ركن البناء مقتصراً على المهمات القريبة المأخذ »

، طبعت في المطبعة المخامية ، بيروت ، سنة ١٨٧٠ ، في ١٧ صفحة صغيرة

ب — الجُمانة في شرح الخزانة

الخزانة ارجوزة مطوّلة في علم الصرف ، علّق عليها المؤلف شرحاً سماه الجمانة . وقد جمع المبادئ والشروح من كتب ائمة ذاك العلم ، مقتصراً على

ما يُحتمل وقوعه في الاستعمال دون الشوارد والمفروضات ، التي كثيراً ما كان يلتجئ اليها صرفيو العرب ونحويّوهم تطلباً للمماحكات والمشاحنات . وقد ختم نظمها وشرحها سنة ١٨٦٤ ، وانتهى من تبييضها سنة ١٨٦٦

طبعت في المطبعة المخلصية اولاً ، ثم في المطبعة الاميركانية سنة ١٨٧٢ ، في ١٤٠ صفحة ، ولها طبعة ثالثة . ثم طُبعت مختصرة بقلم ابن المؤلف الشيخ ابراهيم اليازجي سنة ١٨٨٩

امّا في النحو فللشيخ ناصيف :

ج — طوق الحمامة

مختصر نثري في ٣٠ صفحة صغيرة ، طُبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥

د — الباب في اصول الاعراب

ارجوزة قصيرة في مبادئ النحو مع شرحها بقلم المؤلف . طبعت في بيروت سنة ١٨٨٩ ، في ٢٨ صفحة صغيرة

ه — نار القرى في شرح جوف الفرا

جوف الفرا ارجوزة مطوّلة واسعة جمع فيها المؤلف ما تفرّق في كتب النحاة المختلفة ، فأدّى للمبتدئين خدمة جليلة لاسيما بشرحه الذي سماه نار القرى . وهذا التأليف هو اجمع كتاب عصري صُنّف في الموضوع . فرغ المؤلف من تبييضه سنة ١٨٦١

طبع في بيروت سنة ١٨٦٣ في ٣٨٩ صفحة متوسطة . ثم مختصراً بقلم ابن المؤلف الشيخ ابراهيم سنة ١٨٨٢ ، في ٢٩٦ صفحة متوسطة

وللمؤلف ايضاً كتابان في الصرف والنحو معاً :

و — الجوهر الفرد

وهو موجز طبع في المطبعة المخلصية ، بيروت ، سنة ١٨٦٥ في ١٥ صفحة صغيرة . ثم شرحه ابنه الشيخ ابراهيم وطبعه في بيروت سنة ١٨٨٨ ، بعنوان « مطالع السعد في شرح الجوهر الفرد »

ز — فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب

مطوّل نثري مقسوم الى كتابين : كتاب التصريف ، وكتاب النحو . انهاه المؤلف سنة ١٨٤٧

طُبع في بيروت سنة ١٨٥٦ ، في ١٢٤ صفحة صغيرة . ثم أُضيفت الى شرحه بعض زيادات وطُبع سنة ١٨٦٦ ، في ٢٥٧ صفحة ؛ ثم سنة ١٨٧٧

وقد اشتغل الشيخ ناصيف ايضاً بتنقيح « بحث المطالب » المشهور للمطران جرمانوس فرحات

البيان

وهو يشمل ما يدعوه الادباء عادة بعلوم او فنون المعاني ، والبيان ، والبديع ، والعروض ، والقافية. وكان اول ما ألّف فيه الشيخ ناصيف:

ح — عقد الجمان

كتاب نثري في المعاني والبيان والبديع ، الحق به بحثاً في العروض والقافية سماه نقطة الدائرة . وانهاه سنة ١٨٤٨

طُبع مرّات عديدة في بيروت ، تارةً باسم « عقد الجمان » وطوراً باسم « مجموع الادب في فنون العرب » فالاسمان لمسمى واحد . وأكثر طبعاته في ٢١٤ او ٢١٦ صفحة صغيرة .

ط — اللامعة في شرح الجامعة

الجامعة ارجوزة واسعة في علم العروض والقوافي انهاها الشيخ ناصيف سنة ١٨٥٣ ، فشرحها ابنه الشيخ حبيب وسمّى الشرح « اللامعة »

طُبعت في بيروت سنة ١٨٦٩ ، في ١٢٧ صفحة صغيرة

ي — الطراز المُعلم

ارجوزة مختصرة في البيان اقتصر فيها على المبادئ المهمّة ثم شرحها وختمها سنة ١٨٦١

طُبعت طبعاً متقناً في المطبعة الخاصية ببيروت ، سنة ١٨٦٧ ، في ٣٥ صفحة صغيرة

اللغة

لم يُطبع للشيخ ناصيف في اللغة سوى اثرين هما :

ك — نقد طبعة دي ساسي لمقامات الحريري

وهي رسالة مطوّلة بعث بها الى المستشرق الافرنسي الشهير ، البارون سيلفستر دي ساسي ، تدارك بها ما سها عنه المستشرق في طبعته لمقامات الحريري. وقد سأل الشيخ كتابة الرسالة المسيو داسيس قنصل فرنسة اذ ذاك في بيروت

طبعت في ليبسيك مع ترجمتها الى اللاتينية بعناية المستشرق مهرن (A. F. Mehren) في ١٥٦ صفحة ، سنة ١٨٦٨ ، بعنوان : «رسالة الشيخ ناصيف اليازجي البيروتي الى البارون ساوستري دساسي » وباللاتينية (Epistola critica Nasifi al-Yazigi Berytensis ad De Sacyum)

وقد تضمنت كثيراً من الملاحظات الدقيقة ، والنظرات الصائبة ، في اللغة وقواعدها مما اهتم به المستشرقان رينو (Reinaud) وديرنبورغ (Derenbourg) فاستفادا منه اذ اعادا طبع المقامات في باريس سنة ١٨٥٣ . ولكن يؤخذ على الشيخ ناصيف في تلك الرسالة انصرافه عن التمحيص العلمي اللغوي الصحيح ، الى الاندفاع في زيادة الشروح والافادات عن الامور الثانوية التي لا يأبه لها العلماء . وهذا ما لاحظه المستشرقان ايضاً فحطّ من قيمة لغوي الشرقيين في نظرهما (١)

ل — مجمع البحرين

هو اشهر كتب الشيخ ناصيف . جرى فيه على اسلوب الحريري في مقاماته . وضمّنه ما شاء له اطلاعه الواسع ، وما اعانته به ذاكرته القويّة ، من الفوائد اللغوية ، والقواعد النحوية ، والنكات البيانية ، ونوادر النظم والبديع . فهو من هذا النوع خير اقتداء بالحريري إمام هذه الصناعة . على انه لا يمكن تسميته بالتأليف اللغوي الّا من حيث بيّنّا . لانه يحتوجات الذاكرة والتوسّع اجدر منه بموادات الذكاء والقياس

كان المؤلف قد انشأ مقامة صغيرة على اسلوب الحريري دعاها «المقامة الدينية» فنشرت سنة ١٨٥٣ في مجموعة اعمال الجمعية السورية التي كان هو عضواً فيها . ثم نُشرت في مجلة الجمعية الاسيوية الالمانية مع ترجمة لها بقلم المستشرق فليشر (Fleischer) . فاعجب بها ادباء العصر ورأى الشيخ منهم تشجيعاً ادبياً ومن بعض الغير تشجيعاً مادياً على طبع الكتاب ، فيما لو تمّ . فانصرف الى اتمامه والفه من ستين مقامة ، زائداً ١٠ مقامات على الحريري . وختمه في شهر نيسان سنة ١٨٥٥ . فطبع لاول مرة في بيروت سنة ١٨٥٦ ، في ٤٣٢ صفحة متوسطة ، في المطبعة الاميركية . ثم توالت طباعته في المطبعة المذكورة والمطبعة الكاثوليكية . منها طبعتان مصلحتان بقلم ابن المؤلف الشيخ ابراهيم سنة ١٨٧٢ ، وسنة ١٨٨٠

1) Les Séances de Hariri, *édition de Sacy* — 2e édition, Paris 1853 — t. II, introduction, p. 73

المنطق

المنطق علم آلي ، اي لا يُراد لذاته بل هو آلة يتوصّل به الى اتقان غيره من العلوم كالفلسفة وما تنطوي عليه ، والفقه ، وعلم الكلام . وهو عند العرب تابع لازم للعلوم اللغوية يتقنه الانسان بعد البيان والعروض . ولما كان الشيخ ناصيف متتبعاً علماء العرب في كل موضوعاتهم ، رأى ان يؤلف في المنطق ، فترك اثرين :

م — قطب الصناعة في اصول المنطق

رسالة نثرية مختصرة اقتصر فيها على المبادئ المهمة من البحث في انواع القضايا وضروب القياسات . وكان الفراغ منها سنة ١٨٥٦

ن — التذكرة في اصول المنطق

ارجوزة قصيرة استخلص بها الناظم اركان المنطق ، بعد ان عرضها نثراً في الرسالة السابقة

طبعت الرسالتان في كرّاس واحد في بيروت سنة ١٨٥٧ ، في ٤٨ صفحة صغيرة

الطب

تلقى الشيخ ناصيف الطبّ عن ابيه الذي كان طبيباً على مذهب ابن سينا . فاراد ان يُذكّر به ايضاً ، فنظم فيه ارجوزة مختصرة ضمّنها بعض الفوائد والنصائح والوصفات ، وسماها :

س — الحجر الكريم في الطب القديم

طبعت في مجلة « الطبيب » لبوست والبارودي (١٤ [١٩٠٢] : ١٢٥ و ١٥١) وهي لا تتجاوز ٨٤ بيتاً

والشيخ ايضاً مقامة طبيّة في « مجمع البحرين » ، وهي المقامة الثلاثون

الفقه والموسيقى

كان على الشيخ ناصيف ان ينظم ارجوزة في الفقه حتى يُتمّ سلسلة «العلوم» العربية ، ويقلّد قدماء «العلماء» في جميع مدوّناتهم . الّا انه كان يكره ان يشتهر بالفقه . كما ذكر احد معاصريه (١ ولم يذكر سبب هذا الكره الّا بطريقة غامضة.

١) سليم ذياب : في الجنان ، سنة ١٨٧١ ، ص : ١٩٥

فقال : « لأمور لم يكن يحبها . »

اما الموسيقى فكانت عند العرب من العلوم السماعية ، ولم يعرفوا طريقة لاقرارها بالخط . ولهذا لم يحاول الشيخ وضع شيء فيها مع اتقانه لبعض فنونها ، على ما يذكره المعاصرون

هذا ما تركه الشيخ ناصيف من المطبوعات في مختلف العلوم . وقد ذُكر له ايضاً رسالتان مخطوطتان

الاولى : في التوجيهات النحوية سماها « عمود الصبح » . انتهى فيها الى المفعول فيه . ولم يُفسح له الاجل باتمامها

والثانية : معجم في اعضاء الانسان والصفات التي على « أفعل » ، سماه : « جمع الشتات في الاسماء والصفات . » ولا نعرف عنه شيئاً

وكان قد باشر ايضاً شرح ديوان المتنبي ، فكان يعلّق على هوامش الابيات بعض الشروح المختلفة دون ان يتبعها ويرتبها ، فجمع هذه الملاحظات ابنه الشيخ ابراهيم واتمّها ، وطبع الديوان بعنوان « العرف الطيّب في شرح ديوان ابي الطيّب » في بيروت سنة ١٨٨٢ ، وقد تركه باسم ابيه .

فتكون جملة متروكات الشيخ ١٧ رسالة في علوم العرب المختلفة ، عدا الدواوين الشعرية . وكل تلك المؤلفات سار فيها ، على طريق الاحتذاء والتقليد ، دون الرغبة في الاستنباط والابتكار . وهي ، وان كانت جليلة القيمة في عصر ظهرت فيه لازمة لمعارضة متروكات العرب القديمة في مواضيعها ، سوف تفقد من قيمتها شيئاً فشيئاً حتى تُصبح بعد قليل ولا ذكر لها الّا من حيث التاريخ . فتحقق ان لا خلود الّا لمنتوجات الذكاء وآثار الابتكار . على ان هذا لا ينفي فضل المؤلف وخدماته للغة في عصرنا ، وعمله في سبيل تمكين النهضة الحديثة وهي لا تثبت الّا على اركان قوية ، ومن الصعب ان تُسند هذه الاركان الى غير آثار الاقدمين . فاذا عرفنا ذلك ادركنا ان الشيخ ناصيف احسن بتقليده القدماء لانه لم يكن يمكنه غير ذلك ، لما تحققناه من طبيعة « المحافظة » في صفات الرجل ، التي كان من شأنها ان تتابعه في كل اعماله . واننا كما عرفناه رجلاً «محافظاً» على كل قديم ، نراه ايضاً «عالماً محافظاً» في جميع ابحاثه .

الشاعر

آثاره

للشيخ ناصيف ثلاثة دواوين شعرية هذه عناوينها :

ا — نبذة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي

طُبعت ، لاول مرة ، في بيروت سنة ١٨٥٣ ، في ١٢٨ صفحة متوسطة . ثم طُبعت ، في المطبعة الشرقية ، الحديث ، بعنوان « النبذة الاولى » مصححة بقلم ولده الشيخ ابراهيم ، ومصدّرة بترجمة الناظم بقلم سبطه الشيخ امين الحدّاد ، سنة ١٩٠٤

ب — نفحة الريحان

وهي النبذة الثانية . طبعت ، لاول مرة ، في المطبعة العمومية ، بيروت ، سنة ١٨٦٤ ؛ في ١٣٨ صفحة متوسطة . ثم طُبعت مصححة بقلم ولده الشيخ ابراهيم في المطبعة الادبية ، بيروت ، سنة ١٨٩٨

ج — ثالث القمرين

طُبع في بيروت سنة ١٨٨٣ ، وقد اضيف اليه كثير من التواريخ الشعرية ، في ١٤٦ صفحة متوسطة

وقد نُشر للشيخ على حدة غير ذلك من الآثار الشعرية منها :

د — نبذة تواريخ مقتطفة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي

طُبعت في بيروت سنة ١٨٥٩ في ١٦ صفحة صغيرة

ه — فاكهة الندماء في مراسلات الادباء

رسائل شعرية بين الشيخ ناصيف وكبار ادباء عصره في الشام ، والعراق ، ومصر ، وبلاد المغرب ، طبعت في المطبعة المخلصية ، بيروت ، سنة ١٨٥٦ ، في ١١١ صفحة متوسطة

و — البرهان الصريح في اثبات لاهوت المسيح

قصيدة دينية طُبعت في بيروت سنة ١٨٦٧ في ٧ صفحات صغيرة

وعدا ذلك ، له بعض رسائل من شعرية ونثرية تفرّقت في حياته فلم تُجمع . وكثير من المنظومات والاناشيد الدينية اكثرها مأخوذ عن مزامير داود ، كان الشيخ ينظمها لمدارس الاميركان . وله غيرها من القصائد المختلفة بعضها نُشر في المجلّات والجرائد ، وبعضها عبثت به ايدي الضياع .

شعره

« كأني قاعدٌ في قلب المتنبي »

(الشيخ ناصيف اليازجي)

لا يألف الرجل الّا شبيهه ، ولا يعاشر الّا من يرى فيه شيئاً من اخلاقه . فاذا وجد ذو الشخصية رجلًا آخر على شاكلته ، يحسّ من ذاته دافعاً اليه لا يقاوم ؛ فيتقاربان ويتصادقان ، فيُسرّ كل منهما بصحبة الآخر اذ يرى فيه شيئاً من نفسه ، ويسكن كل منهما الى آراء الآخر اذ يراها نسخةً عن آرائه . وهكذا فان الانسان يحبّ دائماً ذاته ، ولكنه يحبها منعكسة في شخصية صديقه واليفه . فاذا رأيت صديقين متباينَي الاخلاق ، مختلفَي الاذواق ، فهما إمّا صديقا ظرف لا تلبث صداقتهما ان تضمحلّ باضمحلاله ؛ او عشيرا منفعة ، حسنةً كانت او سيئة ، لا تزول حتى يودّعا تلك العشرة . او ان احدهما ضعيف الارادة ، طامس الشخصية ، يتأثر بنفوذ رفيقه القوي ، فيسير الى حيث يأمره لا الى حيث يريد

امّا وقد شرحنا هذا الشواذّ ، فلنطبق ذاك المبدأ العام على شخصية شيخنا اليازجي من حيث الشاعرية ، فنرى انها اشبه شيء بشخصية المتنبي

عرف الشيخ ناصيف جميع شعراء العرب دون شكّ ، ودرس بعض شعرهم اثناء ابحاثه العديدة في فنون الادب . ولكنه لم يعجب ذاك الاعجاب البليغ لا بالمتنبي . هذا ولم يكن ابو الطيب في أوج المجد بين ادباء القسم الاول من القرن التاسع عشر ، فنسب تعلّق الشيخ ناصيف به الى التزيّ بزيّ العصر الادبي . بل لم يشتهر المتنبي عند رجال النهضة الّا بعد ان عرفه اليازجي وعزّفه الى الادباء

فاذا فهمنا ذلك ، عرفنا سبب ميل اليازجي للمتنبي ، وتفضيله اياه على شعراء العرب كافةً ، وادركنا ما دعا الى ذاك الاعجاب الماثل في حكمه هذا :

« كأنّ المتنبي يمشي في الجو ، وسائر الشعراء يمشون على الارض . »

ليس هذا حكم رجل ناقد يُعمل عقله ببرودة ورزانة في الآثار الادبية

فيقيسها دون هوس ولا حماسة. بل هو حكم شاب وافر التأثر أعجب برجل وافر التأثير ، بعد ان فهمه كل الفهم ، فراعته عظمته وجلاله ، ولم يجد في اساليب نقده غير هذه الصورة. وهي تدلنا على تلك الصلة التي كان يشعر بها الشيخ ناصيف بينه وبين مادح سيف الدولة ، تدلنا على تلك الموهبة في عقل الشيخ التي بسطت له معاني المتنبي ففهم بعضها على طريقة خاصة لعلها كانت اقرب الطرق الى روح الشاعر الكبير ، تدلنا على تلك القرابة النفسية بين الشاعرين التي دفعت الشيخ الى القول المشهور الذي صدّرنا به هذا الدرس وهو:

« كأني قاعدٌ في قلب المتنبي ! »

نعم ! كأنه قاعد في قلب المتنبي ! وايّ شيء ادلّ على تلك الخاصة من آثار الروعة والفخامة والجلال التي نراها في اكثر مطالع الشيخ ، لاسيما في قصائد المدح والرثاء . من مثل يسمع هذا المطلع في مدح اسعد باشا ، قائد جيش البلاد العربية :

بناءُ العُلى بين القنا والبوارق على صهوات الخيل ، تحت اليارق !
وفي سرُّ في العباد ، وانما قليلٌ محلّ السرّ بين الخلائق
يقلّب هذا الدهر احوالنا ، كما تقلّبَ فينا لاحقاً اثر سابق !

ولا يشعر بروح المتنبي ترفرف على جميع مقاطعه ! بل من منا لا يجزم ، لاول وهلة ، بانه للمتنبي لولا لفظة « اليارق » المستحدثة

ومن قولكم بهذا المطلع في مدح باني مدرسة :

لولا التفاوتُ في الاخلاق والادبِ تساوت الناس في الاقدار والرتبِ

وهذا المطلع في الرثاء :

لكل مصاب الدنيا خصوصٌ به افترقت ، وللموت العمومُ

وهذه الابيات :

انا نحن في اختلاف عقولٍ مثلما نحن في اختلاف وجوهِ

وكلُّ كريمٌ النفس من مال غيره وقلّ كريمُ النفس من نفس مالهِ

اذا شاب رأس المرء فالشيب لاحقٌ بهمّته حتى يوسّدها الترابا !

ولكن مالي ولتعديد الاستشهادات . وانا لو شئت ذكر المطالع او الابيات التي يتنسّم فيها القارئ روح ابي الطيب ، لذكرت ثلاثة ارباع شعر الشيخ. فان

تأثره المتنبي بلغ منه مبلغاً تجاوز الاسلوب الشعري الى المعاني ، وسبك الجمل ، بل الى القوافي والالفاظ ايضاً . حتى انه قد يستعمل لفظة لا مسوّغ لها ولا حاجة لاستعمالها ، سوى انها وردت في شعر المتنبي ، وعلقت بذاكرة الشيخ فأتت في شعره ، عن غير قصد منه ، كما حدث له في لفظة «جُلاهق». قال المتنبي واصفاً مهره :

كأنما الجِلدُ لعُرْيِ الناهزِ منحدرٌ عن بيتَي «جُلاهقِ».

يريد ان ناهقي مهره ، وهما عظماه الناتئان في مجرى الدمع من عينيه ، عاريان من اللحم حتى كأن جلدهما مشدود على بيتي الجُلاهق ، والبية طارف القوس ، والجُلاهق القوس كما يقتضيه المعنى . فبقيت ذاكرة الشيخ ناصيف تردّد لفظة الجلاهق بمعنى القوس حتى دفعتها في شعره ، اذ قال في مدح اسعد باشا :

اذا اشتدّ خطبٌ اعجز الناسَ كشفه رماه به عن مثل قوسٍ «جُلاهق»

فدُفع الى استعمال اللفظة نفسها بغير معناها ، اذ اوردها صفةً وهي موصوف . كل ذلك ايثاراً ، عن غير علمٍ منه ، لتتبع المتنبي حتى في الفاظه .

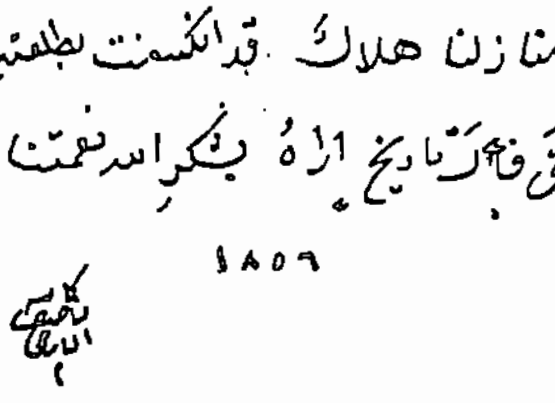

مثال من خط الشيخ ناصيف اليازجي وامضائه : تاريخ ولادة شكرالله بن ميخائيل مدوّر
(عن مجموعة الفيكونت دي طرازي)

فيتضح ان اليازجي ، في شعره ، صورة مصغّرة للمتنبي : صورة مصغرة بالحسنات ، صورة مصغرة بالسيئات ايضاً . فانه ، ان كان المتنبي المبتدع فاق

بما لا يُقاس اليازجي المتبع ، فان اليازجي تجنّب كثيراً من سقطات المتنبي . فهو كما قدّمنا صورة صُغرت ، فضعُفت حسناتها وسيئاتها معاً

على ان اليازجي لو اتبع ابا الطيب وحده ، لكان تخلّص من كثير من الشوائب وضعف الذوق . ولكنه ، لما كان من طبيعته متقلّداً محافظاً على القديم ، دفعته تلك الطبيعة الى احتذاء «العلماء» حتى في الشعر . ومن صفات الشعر الحي الشخصي ان يكون بعيداً عن تأثير ذاك «العلم» . فبينا تراه يرقى الى اسمى درجات البلاغة والروعة في الكتب الشعري ، كما في مدحه للشيخ احمد الأغرّ مثلاً اذ يقول :

كعبةٌ حجّت القوافي اليها طائفاتٍ بركنها مستلمهْ

تجده ينحط الى اسمج التلميحات الصرفية والنحوية والبديعية والعروضية ايضاً . وهي شوائب كادت تعلق بشعر المتنبي ولكنه تخلص منها اذ لم تكن تملكت بعد في عصره . فترك اليازجي استاذه عند هذا المفرق ، لسوء الحظ ، وعطف على «علومه» ، فقال ملتحاً الى الصرف والنحو :

وقطبتُ عند زجر الصبّ حاجبَها لاما تعد التأكيدَ بالنونِ !

ما زلت مستنداً اليك محدّثاً فكأنني خبرٌ وانت المبتدا !

ضربتني فسألت لا كضربٍ دار في النحو بين زيدٍ وعمرو

وهذه ، وفيها من تكلّف التلميح والتلاعب اللفظي ما يذهب برونق ديوان بكامله :

حبائي على بعد المدى برسالة تناولتها بالقلب لا بالأصابعِ
منعت انصراف الدين عنها تصبّباً كما حال دون الصرف بعضُ الموانعِ

له من قوافي الشعر جيشٌ عرمرمٌ أتتنا الى بيروت منه طلائعُ
قوافٍ قفاها انه تابعٌ لها كما تبعت من قبلهنّ التوابعُ !

وهناك تلميح الى العروض ، والى فنون النظم من تشطير وتخميس :

حسبٌ فوق ذلك المجد قد زا دَ كأبيات الشعر بالتشطيرِ !

اوفى وزاد على القديم حديثُه كصناعةِ التخميس للشعراء !

والى الفقه ايضاً :

قد تلفت في يدها مهجتي عمداً ، ولم يثبت عليها الضمانْ

ما بين عينيها وأكبادنا داهيةٌ بكرٌ وحربٌ عوانْ

وانا اكتفي بهذا القدر ، وامثاله كثيرة في شعر الشيخ مما لم يكن بحاجة الى الالتجاء اليه ، لغزارة ما كان في نفسه من الشاعرية الطبيعية ، واختلاف اوتارها .

على اننا لا نتسرَّع في الحكم عليه بفساد الذوق ، قبل ان نعرف نظريّته في الشعر ، وفي كيف كان القدماء ، اساتذته ، يفهمون الشعر :

نعرف اولًا ان هذه الانواع من التلميح والإشارات الى فنون الادب المختلفة تؤلف نكاتاً غريبةً جميلة في مذهب علماء الادب . ونعرف ثانياً ان التلاعب اللفظي ، على سخافته ، كان — ولا يزال لسوء الحظ عند بعض عبّاد الالفاظ — يؤلف نوعاً لطيفاً من انواع البديع . فلنعرف الآن ما كان يفهم الشيخ ناصيف بالشعر ، فهو يقول :

اجلُّ الشعر ما في البيت منه غرابةُ نكتةٍ او نوعُ لطفِ

فاذًا هو على وفاق بين نظريته ونظمه . واذًا فتلك الابيات الباهتة في عرفنا هي من « اجلّ الشعر » في عرفه . واذًا فلا لوم لنا عليه لانه لم يتجنب هذه الانواع ؛ بل لا لوم عليه لانه قلّد « ائمة الادب » ، وهو قد طُبع على ذلك . وكما انه احسن في تقليد الحسن ، كان من اللازم ان يسيء في تقليد السيء .

امّا ما زاد فيه على غيره من انواع التقليد ، كنظم تلك الالغاز والاحاجي ، وسبك القصائد العواطل وعواطل العواطل ، والخيفاء والرقطاء ، والمعجمة والمهملة ، وامثلة العكس والطرد ، وترتيب التواريخ من مفردة ومزدوجة . فلا مجال لي للبحث فيه ، اذ انني ادرس شاعرية اليازجي ، وتلك التلاعبات تبعد عن الشاعرية بعيدها عن الذوق السليم

ورب سائل يقول : وما سبب ضعف الذوق في اليازجي خاصّة ، وفي شعراء القرن التاسع عشر عامة ؟ فاننا نحيله على الشيخ ناصيف نفسه ، وهو لم تخفَ عليه معايب الشعر في عصره ، ولم يخفَ عليه سببها ، فقال بكل صواب :

ولئن تكنْ كثرت معايبُه ، فقد ستَرَتْ عليها قلّة التفاتي

ونحن نختم بهذا البيت متأسفين الّا يكون الشيخ ناصيف عرف ناقدًا سار بهديه ، واستضاء بحسن ذوقه . وهو ، لو فعل ، لظهر لنا مثالًا ساميًا ، تامًّا ، للثقافة العربية الخالصة ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر